سرديات تاريخيّة

إضاءة على عمل مكتب الإحصاء المركزيّ في سبعينات القرن الماضي

لبيب ناصيف*

قبل أن تتولى مسؤولية الإحصاء في الحزب شعبة أو دائرة في عمدة الداخلية، مثلما هو الوضع راهناً، كان انشيء عام 1978 مكتب للإحصاء المركزي تابع لرئاسة الحزب توليتُ رئاسته، وانضم إليه تباعاً الرفقاء إيلي سعاده[1]، نديم شديد[2]، نبيل محمد سمكو[3]، خليل رزق[4] فالرفيقة هلا النابلسي[5] التي تولت مسؤولية ناموس المكتب عوضاً عن الرفيق خليل رزق، واستمرت الى حين توقف عمل المكتب.

إليهم كان عدد كبير من الرفقاء الطلبة يساهمون في عمل المكتب لأوقات مختلفة.

استمر عمل المكتب الى حين دخول القوات «الإسرائيلية» وتطويقها العاصمة بيروت صيف عام 1982. قمنا، بناء على قرار المجلس الاعلى، بحرق الأوراق الحزبية لئلا تقع في أيدي العدو في حال تمكن من اجتياح بيروت.

من أعمال مكتب الإحصاء:

1 – اعتمد نواميس المنفذيات والمديريات بشكل أساسي لتنظيم عملية الإحصاء في الفروع.

2 – لحظت الاستمارات الآتي:

أ. استمارة كاملة للرفقاء المنتظمين في الفرع الحزبي.

ب. استمارة خاصة بالرفقاء غير العاملين حزبياً.

ج. استمارة خاصة بالرفقاء المغادرين عبر الحدود.

3 – يقوم الرفيق المكلف بالإحصاء بتدوين المعلومات التي يدلي بها كل رفيق على استمارة – خرطوش. أما المعلومات الخاصة بالاستمارتين ب و ج فيحرّرها الرفيق المكلف.

4 – يطلع المسؤول عن الوحدة الحزبية على جميع الاستمارات قبل رفعها بالتسلسل الحزبي الى مكتب الإحصاء.

5 – يدقق رئيس المكتب بالمعلومات الواردة في كل استمارة ويوجّه صادرة حزبية الى كل من الفروع الحزبية المعنية مفنداً فيها ما سجّله من ملاحظات: للتصحيح أو لإضافة المعلومات، أو للتوضيح.

6 – بعد الانتهاء من استكمال المعلومات، تحال الاستمارة – الخرطوش الى أحد الرفقاء في المركز من الذين يملكون الخط الجيد، فينقل تلك المعلومات على استمارة من الورق الأبيض فتحفظ، فيما تتلف النسخة – الخرطوش.

تلك الاستمارة تصوّر لاحقاً على ميكروفيلم كان متوافراً في مركز الحزب.

7 – تنوعت الجداول العامة كالآتي:

جدول بأسماء الرفقاء المنتظمين في الوحدة الحزبية، وأمام كل إسم إشارة الى أن الرفيق نظم استمارة كاملة.

ب. جدول بأسماء الرفقاء غير العاملين ممن نُظمت عنهم الاستمارات الخاصة. كذلك جدول خاص بالرفقاء عبر الحدود.

ج. جداول خاصة بكل من فروع عبر الحدود. وأمام اسم كل رفيق، مكان ولادته في الوطن. كثيراً ما كان الإسم الواحد مسجلاً في جدول أسماء الرفقاء عبر الحدود في البلدة المعنية، وفي آن واحد، في جدول الفرع الحزبي عبر الحدود.

د. جدول بكل نوع عمل أو دراسة، (كمبيوتر، تاريخ، حداد، نجار، إلخ...) يحتوي على أسماء الرفقاء

في كل مهنة أو ودراسة، المنتظمين في كل فروع الوطن وعبر الحدود.

كان يكفي أن نطلع على جدول «تاريخ» كي نقرأ أسماء الرفقاء الطلبة، أو الذين تخرجوا وقد حازوا إجازة في التاريخ، أو اكثر.

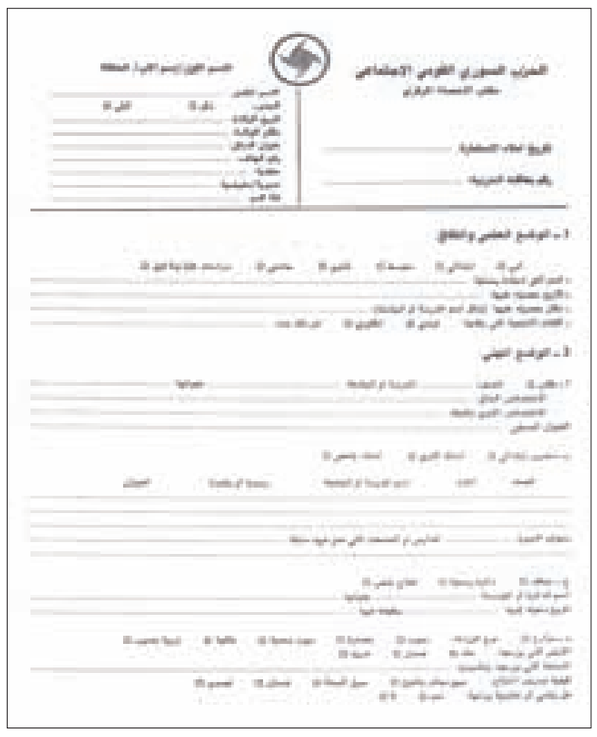

هـ. جداول بالأحرف الأبجدية، بحيث يتسجل في الجدول «ج»، على سبيل المثال، أسماء جميع الرفقاء

الذين تبدأ اسماء عائلاتهم بالحرف ج. كنا بمجرد أن نتسلّم اسم الرفيق – من دون إسم الفرع الحزبي حيث مكان إقامته – نتمكن من معرفة إسم الفرع – المرجع عبر اطلاعنا على اسمه في الجدول الخاص بالحرف الأبجدي.

و. جداول بالرفقاء بحسب سنوات الانتماء. فقد تمكنا من احصاء الرفقاء الذين انتموا في الثلاثينات

والأربعينات فلاحقاً. كذلك جداول بالرفقاء حسب تواريخ الولادة، وجداول أخرى بحسب فئات الدم.

هذه كلها كانت تتحقق كتابة، مع ما يعني ذلك من جهد وعناء، إذ لم يكن الكمبيوتر متوافراً في تلك الفترة.

* * *

هذا العمل المضني استهلك 8 الى 10 خزائن حديدية امتلأت بالملفات المتضمنة ألوف من الاستمارات المتنوعة.

عند اجتياح القوات «الإسرائيلية» لبنان وتطويقها العاصمة بيروت تبلغنا قراراً صادراً عن المجلس الأعلى الموقر بوضع جميع الأوراق الحزبية في امكنة معينة يسهل الوصول إليها لإتلافها / حرقها في حال بدأ الاجتياح لبيروت. وفعلاً تم ذلك في الساحة المجاورة لبناء المركز، ولم نبق جانباً سوى لوائح الأسماء التي وُضعت في منزل أحد الرفقاء الأساتذة في الجامعة الاميركية، وكان رفيقاً سرياً.

قبل مغادرتي الى البرازيل[6] عبر مطار دمشق، أبلغت، في بيروت، كلاً من الأمين جبران جريج والرفيقة هلا النابلسي وفي دمشق الأمين عصام المحايري، عن مكان وضع تلك الجداول. ولدى عودتي استعدتها من الرفيق السري، ولاحقاً تسلمتها عمدة الداخلية، الأمين علي حسن الذي كان يتولى مسؤولية وكيل عميد الداخلية، والأمين حافظ الأحمدية وكان حينها ناموساً للعمدة، وما زال على معرفة بما شرحته آنفاً.

* * *

في تقريره الى المجلس الأعلى الموقر، بتاريخ 6 آب 1980 أورد رئيس الحزب الأمين الدكتور عبدالله سعادة الشهادة الآتية عن مكتب الإحصاء المركزي[7]:

« كان إحياء هذا المكتب الهام هدفاً من أهداف السلطة التنفيذية الأساسية.

ذلك أن الإحصاء العلمي يؤمن للسلطة التنفيذية في كل مصالحها فوائد كبرى في عملها ويسهل عليها الكثير من الاعمال.

كان هذا المكتب قد باشر عمله المركزي المنظم عام 71 – 1972، وانقطع فيه العمل بعد ذلك، وإن كانت بعض الدوائر الحزبية أجرت إحصاءات خاصة في بعض الظروف وضمن حدود معينة.

ويمكننا أن نؤكد بأن المكتب استطاع أن يحقق انجازاً متقدماً رغم الصعوبات الموضوعية التي اعترت عمله. ونرفع لكم تقرير رئيس المكتب الأمين لبيب ناصيف. لأن تقريره شامل ومكثف ولا داعي لتلخيصه.

ويسرني أن أنوه بالأمين لبيب للجهد الرائع الذي بذله في هذا المكتب، وكرئيس لمكتب الرئاسة الإداري».

هوامش:

1 – تولى مسؤوليات محلية ومركزية منها مسؤولية ناموس عمدة الثقافة.

2 – من بلدة «صغبين». غادر الى بناما. وإذ عاد واستقر في «قب الياس» تعرض للاغتيال، بعدما كان شقيقه الرفيق عصام تعرض لأمر مماثل، وشقيقه الرفيق غازي للاختطاف، وما زال مصيره مجهولاً. لم يبقَ من الأشقاء الرفقاء الأربعة سوى الرفيق نبيل شديد، الناشط حزبياً، والمسؤول في البقاع الغربي.

3 – كان نشط حزبياً في الضاحية الشرقية ثم في بيروت. والده الرفيق الراحل محمد سمكو كان تولى مسؤولية مدرب في رأس بيروت، ونشط كثيراً في المجال الأمني – العسكري.

4 – من أميون – الكورة، ناشط حزبياً، ومتولياً مسؤوليات محلية منها مدير مديرية أميون .

5 – تتولى حالياً مسؤولية مديرة دائرة الإحصاء في عمدة الداخلية.

6 – صدر القرار في مجلس العمد بضرورة مغادرتي الى البرازيل مكلفاً بمسؤولية مندوب مركزي، وقد تحقق ذلك بعدما كان خرج الامين جورج شربل من الاعتقال مبلّغاً رئيس الحزب آنذاك الأمين انعام رعد أنه يرجّح تعرضي للاعتقال، إذ كنت احمل مسؤوليتي عميد مالية ورئيس مكتب الإحصاء المركزي. الأمين نصري خوري الذي كان عميداً للعمل أبلغني القرار المشار إليه.

7 – كنت سأورد ذلك في المذكرات التي انكبّ على كتابتها. إنما، ونحن ننشر نبذة عن تاريخ مكتب الإحصاء في السبعينات، فمن المفيد أن نضيء على كامل عمله.

*رئيس لجنة تاريخ الحزب

الصرخة الاخيرة

ل.ن

في النبذة المعممة عن الأمين الراحل موفق شرف، ورد نص الرسالة التي كنت وجهتها إليه بتاريخ 2004/04/28 والتي يصح أن توّجه مرة جديدة الى كل أمين ومنفذ ورفيق، آملاً في أن يطلع عليها كل رفيق إن لم يكن تسنى له ذلك سابقاً، ففيها توضيح كاف لما تسعى إليه اللجنة، ودعوة ملحاحة إلى أن يساهم الرفقاء في هذا الواجب.

لا أضيف على ما تضمنّته الرسالة، ولا الى الصادرات والتعاميم التي وجهتها في أوقات سابقة الى فروع حزبية، أمناء ورفقاء، إنما أوجه صرخة أخيرة الى كل عقل ووجدان، مؤكداً على الآتي:

ما نقوم به منذ سنوات ليس عملاً تجارياً ولا شخصياً، إنه استماتة في سبيل حفظ ما أمكن من ذاكرة الحزب، لجهة:

شهدائه.

حضوره في بلدات وقرى ومناطق.

مناضليه الذين تميزوا بنشاطهم الحزبي مركزياً و/ أو محلياً، ومن الواجب أن يتعرّف إليهم الرفقاء حديثو الانتماء.

الأدباء والشعراء والفنانين في الوطن وعبر الحدود، بعضهم معروف بالإسم من دون سيرة شخصية وحزبية، وبعضهم غير معروف بالمطلق.

حوادث حزبية متنوعة.

إن كل فرع حزبي تسلّم ما يتوجب الاهتمام به فالاجابة عليه، وكل أمين ورفيق طلب إليه أن يهتم بكتابة ما يفيد تاريخ الحزب في بلدة معينة أو عن موضوع حزبي معين، بل ان كل فرع حزبي يعي أهمية إنجاز ملف تاريخ العمل الحزبي في متحده، جميعهم مدعوون إلى أن يساهموا مع اللجنة في عملها، إذ إن تاريخ الحزب، على أهميته وتنوعه وضخامته، لا يقوم به فرد أو اثنان، إنما هو موضوع يجب أن ينهض به كل فرع حزبي، وكل امين أو رفيق كلّف بعمل معين أو يملك من المعلومات المفيدة لتاريخ الحزب فيدونها لئلا تضيع.

لعلها الصرخة الأخيرة.

* * *

نص الرسالة المشار إليها آنفاً:

« حضرة الأمين،

لا أريد أن أكرر ما سبق وأوردته لك في رسائل سابقة، إنما أتقدم منك باقتراح أن تتصل – أو أن تدعو إلى لقاء – بالرفقاء الذين تقدم بهم العمر، في منطقة مراكيبو – كايماس (نبيه مكارم – أنيس صعب – عفيف صعب – خليل نخول...) من أجل بحث موضوع تاريخ الحزب في هذه المنطقة، إذ حرام أن يضيع، وقد شهدت حضوراً حزبياً جيداً على مدى سنوات طوال .

إن تاريخ مراكيبو – كايماس، كما تاريخ الحزب في فنزويلا وفي مناطق أخرى من أميركا اللاتينية – كما خارجها – هو من حق أجيال الحزب، كما الأمة. فإن لم يسجله اليوم الرفقاء الذين يملكون بعضاً من تلك المعلومات، سيضيع ذات يوم، وسيخسر الحزب، نهضة وأجيالاً، تاريخاً يجب أن يبقى.

مسؤوليتك في هذا الصدد، هامة. كذلك رفقاء في مختلف فروع فنزويلا، منهم حنا خزمو ورياض الحسنية، وقد كتبت لهما.

العمل المقدس، الذي أشير إليه، والذي أرى أنك مطالب – قومياً اجتماعياً – بإعطائه كل ما تقدر عليه من اهتمام، ليس شخصياً، لا لي ولا لك، إنما هو للنهضة، للأمة، لأجيالهما.

فإما أن يدونه من بقي من أمناء ورفقاء، وإما أن يضيع، مع الكثير مما لم يدونه عدد كبير من الأمناء والرفقاء الذين عايشوا أحداث الحزب وأو كانوا من مؤسسي العمل الحزبي في الكثير من المناطق .

لقد وجهت، لك، للفروع، كما إلى مفوضية فنزويلا، الكثير من الصادرات، وتحدثت يوم الاثنين 2004/4/26 مع حضرة الأمين محمود الجوهري والرفيق جوزف ساسين. كما أن ما نشرته في «صوت النهضة/البناء» يقدم تحريضاً ودعوة للرفقاء كي يساهموا ويهتموا ويعتبروا موضوع تاريخ الحزب من مواضيع الحزب الهامة.

أكرر، هي مسؤولية الجميع من أمناء ورفقاء معنيين، وأنت منهم ».

* * *

من وحي سعاده:

فارق كبير بين أن تعمل للحزب، في سبيل نموه وانتصاره، أو أن تعمل لنفسك، عبر الحزب.

الخبر الثقافي

الفنّان الأردنيّ جميل عواد: سورية الوفيّة قادرة على دحر المؤامرات

يؤكد الفنان العربي الأردني جميل عواد الثقة بقدرة سورية على الانتصار والتحرر من المؤامرات الصهيوأميركية التي تحاك ضدها وينفذها عملاء وأدوات الصهيونية وأميركا، مضيفاً عواد في حفل عشاء أقامته نقابتا المحامين والأطباء الأردنيين دعما لأطفال سورية بحضور القائم بأعمال السفارة السورية في عمان محمد أبو سرية: «إن سورية الوفية التي تحررت من المغول ومن المستعمر الفرنسي قادرة على أن تتحرر من المؤامرات التي تحاك ضدها بقيادة أميركية صهيونية وتنفيذ عملائها في المنطقة»، مشدداً على أن سورية ستنتصر وطناً وشعباً وتاريخاً ومستقبلاً، لافتاً إلى أنه عاش في سورية خمس سنوات وحظي بحرية تامة لم يعرفها في أي مكان آخر بالعالم.

من ناحيتها أكدت الفنانة الأردنية جولييت عواد أن الدفاع عن سورية واجب وطني وقومي إذ تشكل المعقل العربي الأخير للعرب، مشيرة إلى الدور البارز للدول الغربية والولايات المتحدة الأميركية في صنع ما تتعرض له سورية قائلة: «دعونا وشأننا فنحن أقدر على حل مشاكلنا بأنفسنا».

خلال الحفل عبر نائب نقيب المحامين المحامي عادل الطراونة عن التضامن مع سورية في مواجهة ما تتعرض له. وشارك في الحفل الأسير السوري المحرر صدقي المقت الذي أفرجت عنه سلطات الاحتلال «الإسرائيلي» بعد أسر مديد، لمقاومته الاحتلال «الإسرائيلي» في الجولان السوري المحتل، كما حضر عدد كبير من الفعاليات السياسية والحزبية والنقابية والشعبية.

«الأزمنة» عدداً جديداً

صدر العدد الجديد من مجلة «الأزمنة» متضمناً عدداً من المقالات الفكرية والعلمية والنفسية، الى القراءات الأدبية والسياسية، وبعض الرؤى لمثقّفين وكتّاب.

في افتتاحية العدد كتب الدكتور نبيل طعمة مقالاً حول «توقعات 2015» رأى فيه أن حال منطقة الشرق الأوسط يصطلح هذا العام بعد انكسار مشروع ما سمي بالربيع العربي، حيث يعود الأخوة الأعداء الى بناء علاقات متفائلة جديدة وتنتهي غربة الأصدقاء عن بعضهم الى حد ما، ريثما تتم استعادة الثقة المفقودة. واعتبر طعمة انه في السنة المقبلة سوف تأخذ الحلول مصيرها الى النور وتدور العجلة الاقتصادية بهدوء بعد تقييم حجم الكارثة، وتتفاعل سياسات المنطقة ليخبو لهيب العسكرة وتبقى تداعيات الأزمة تحت واقع المتابعة، وأهم من هذا وذاك تتجه المنطقة برمتها لإعادة بناء إنسانها وتقديم جرعات فكرية أخلاقية وإنسانية قبل التفكير بإعادة بناء ما تهدم من حجر، وهذا ما بناه على استنتاجاته الثقافية والفكرية وخبرته بالمنطقة والعالم.

في زاوية وجهة نظر كتب غسان يوسف تحت عنوان «محرم سياسي»: ماذا استفدنا اليوم من كل ما قاله المحللون السياسيون ومن تدوير الزوايا والعودة الى المربع الأول وتضييق الدائرة وتوسيع المنحنى الى مصطلحات ما أنزل الله بها من سلطان، بينما تجد الجندي المؤمن بواجبه ثابتاً في مكانه، قابضاً على سلاحه، متحدياً حر الصيف وقر الشتاء، صادقاً مع نفسه ومع الآخرين.

في خاطرته الدينية كتب فادي برهان تحت عنوان «ميلاد مجيد»: «أكد القران الكريم في معرض الحديث عن ميلاد السيد المسيح عليه السلام على تلك المعجزة السابقة التي لم يكن لها مثيل عبر التاريخ، حيث ولد عليه السلام من أمه مريم الصديقة ونطق في المهد لا بكلمات الطفل أو الغلام بل بمنطق الأنبياء والرسل والقديسين، وإن المسيح المبارك تحل بركته في كل زمان ومكان بين كل الكائنات والمخلوقات»، معتبراً أن بلاد الشام ما زالت واجهة الأمة العربية ومهد الحضارات ومهبط الوحي وهذا ما جلب اليها الويلات، خاصة من دول النفط.

أما كميل عبيد فكتب مقالاً عنوانه «داعش جدار برلين الجديد بين سورية والعراق» مظهراً فيه أنه منذ خروج العثمانيين من بلادنا استشعر النظامان الدولي والاقليمي بخطورة لقاء سورية والعراق وقيام أي تقارب بينهما وتأثير ذلك في المصالح الغربية القائمة على النهب الاستعماري لمنطقة الخليج، فوضعت هذه القوى استراتيجيتها على إثارة المشاكل بين سورية والعراق ومنع تقاربهما.

وكتب محمد خالد الخضر في زاوية شعر وأدب دراسة حول «التحديات والثقافة الراهنة» بين فيها مدى تحدي الثقافة السورية للأزمة، والأسس التي بدأت تعمل عليها وزارة الثقافة بعد المحاولات الجادة لإفشالها من قِبَل المتآمرين على سورية.

كما حوى العدد أخباراً رياضية وسياسية واجتماعية في سورية والعالم، إضافة الى الأخبار التكنولوجية وتطوراتها وتداعياتها، والأخبار الصحية والعلمية.

قراءة تحليليّة في رواية «صابر» للروائيّ والسينمائيّ سليم دبّور 2/2

سمير الجندي

أثار الكاتب قضايا عديدة ومهمة جداً أذكر منها: قضية العمالة، وقضية العمل في المستوطنات، والإسقاط الأمني للفتيات والشبان، والتحقيق في الأقبية الصهيونية، والفقر في المخيمات، والتماسك الاجتماعي، والواسطة، والبطالة، وغلاء المهور، والإشاعات، وعلاقة اليهود بالفلسطينيين قبل الاحتلال، وسرقة جثث الشهداء وسرقة الأعضاء منها مثلما فعلوا مع «دلال»، وقضية التفجيرات (العمل الاستشهادي) والآراء المختلفة حولها، وقضية الجرحى المقعدين مثلما حدث مع الطفل «محمد»، وهدم بيوت المعتقلين، وأمور كثيرة ومهمة جداً سيلاحظها القارئ لدى قراءة الرواية.

حضور المرأة الفلسطينية قويّ ومميّز في الرواية؛ إذ كانت إلى جانب الرجل في جميع محطات الصراع، ونالت نصيبها من المعاناة بفقدان أحد أبنائها أو اعتقال ابنها أو زوجها، أو هدم منزلها أمام عينيها أو تزويد الجيران الخبز وقت حظر التجوّل، حتى أنها فقدت حياتها ورأينا كيف استشهدت «دلال» أمام نقطة التفتيش بدم بارد من دون مراعاة الظروف الإنسانية التي كانت تمر بها، وحاجتها الملحة إلى بلوغ المستشفى للولادة، ورغم جميع الحوادث الموجعة تستمر الإرادة والإصرار على التحدي حتى نيل الحرية.

لو تعمقنا قليلاً في بعض حوادث الرواية لتوصلنا إلى تحليلات عميقة، مثلاً: هل «صابر» فعلاً مجنون لأنه لم يدفن جثة العجوز ووضع ابنه في قفص؟ إلامَ يرمز استحضار الروائي لشخصية «آدم» من خلال الحلم؟ لِمَ يعيش العجوز في خيمة؟ لِمَ مات العجوز بعد توقيع اتفاقية أوسلو؟ لِمَ أطلقت «دلال» على ابنها اسم «صابر»؟ وأمور كثيرة طرحها الكاتب تستحق الوقوف أمامها والتفكير بها عميقاً. أرى أن «صابر» ليس مجنوناً بل أعقل العقلاء: « تمخض الألم في قلبي، فأنجب جنوناً! يا ناس، أنا لست بمجنون، أنا أعقل من أعقلكم، لكن ما أصابني جنّن الجنون. يا ناس، أعيدوا لي صابراً، أعيدوا لي دلال، أعيدوا لي العجوز، أعيدوا لي كل ما فقدت وأعدكم بأن أحارب الجنون. يا ناس، لا تقطعوا العرق النابض، لا تغتالوا حلمي المبعثر، لا تسخروا من وضعي المدمّر، الموت للصدمات. الموت للحقن! الموت لكل من اتهمني بالجنون». فهو لم يدفن العجوز لأن عقله لم يعد قادراً على التفكير، بل لأن العجوز يرمز إلى الضمير، و«صابر» يدرك ذلك جيداً، كما أن موته بعد توقيع اتفاقية أوسلو التي يرفضها العجوز يؤكد ذلك. كان العجوز على ثقة من أن أوسلو هي الحقنة التي ستجهض الانتفاضة وبالتالي ستنقل الفلسطيني إلى مرحلة أكثر قسوة، من وجع إلى وجع أشدّ مرارة. موت الضمير جعل «صابر» يعتقد حدوث الأسوأ، وهنا ازداد خوفه من المستقبل المجهول فوضع ابنه في قفص، هو يدرك أن القفص لن يحمي ابنه من الموت، بل أراد أن يقول لنا إن بعد موت الضمير سيكون أطفالنا عرضة للخطر الشديد. لعلّ ما يحدث في الوقت الراهن من استهداف الأطفال وقتلهم بدم بارد يجسد نبوءة الكاتب التي تحققت.

أما بقاء العجوز في خيمة فترمز إلى رفضه اللجوء وإيمانه بعودته إلى اللد المدينة التي شرد منها واستشهد والده فوق ترابها، كأنه يقول لنا: بقائي هنا مؤقت، ولست في حاجة إلى بيت، فبيتي في اللد وما زال العجوز يحتفظ بمفتاح منزله في اللد تحت وسادته: اتكأ على وسادته، فانزلقت الوسادة. رأيت تحتها مفتاحاً كبير الحجم وقديم الصنع يأكله الصدأ، استغربت أنه يحتفظ بمفتاح، فلا يوجد في خيمته شيء يستدعي وجوده. تناولت المفتاح، وسألته وأنا أتفحصه لماذا يستخدمه. تنهد تنهيدة حزينة، وقال: «كنا نستخدمه ذات مرة». لم أفهم ماذا قصد. سألته مستغرباً: وماذا تقصد؟ فأجاب وقد بدا غاضباً: «هذا مفتاح منزل والدي، هل فهمت؟». سألته بفضول أو ربما بغباء: لماذا تحتفظ به حتى الآن؟ رمقني بنظرة لم أفهمها وأجاب باستياء: «لهذا المفتاح قفل، ولذاك القفل هذا المفتاح! من يعلم متى سيلتقي هذا المفتاح بذاك القفل». قلت بعفوية وسذاجة: «أجزم أنهم كسروا القفل». انتزع المفتاح من يدي، وقال ساخراً: «وأنا أجزم أن أمامك الكثير لتتعلمه، أسأل الله أن نستخدمه ثانية في المكان الذي أُعدّ له».

أراد الكاتب القول لنا إن تحرير فلسطين واستقلالها لن يكون قريباً، ومن هنا خلق شخصية «صابر» الإبن دلالة على استمرار المعاناة والاحتلال، وليس تيمناً بـ«صابر» الأب الذي ظنت زوجته أن والده قد استشهد. «صابر» يعاتب والده منذ البداية ويلومه لأنه أحضره إلى عالم مكتظ بالظلم والفساد: «أنت الملام يا أبي، ليتك لم تفكر بإنجابي. ألم تكن تدري أن العالم الذي جلبتني إليه عالم مكتظ بالظلم والفساد؟ أم هل كانت شهوتك أقوى من أي إدراك لأية حقيقة؟». إلا أنه يدرك لاحقاً أن والده ضحية مثله، وأن من يستحق اللوم والعتاب هو سيدنا آدم عليه السلام، إذ أخرجنا من الجنة بسبب فضوله، وبالتالي تسبب لنا بهذه المعاناة، فاستحضر الكاتب شخصية «آدم» من خلال الحلم ليأخذه في رحلة يرى من خلالها ماذا فعل أولاده البشر بأنفسهم.

يتنوّع الصراع والتصادم في هذه الرواية بين قوى متعددة، وكل حدث يؤثر في الآخر بطريقة لبقة. وتبرز في الرواية ازدواجية الصراع، داخلياً وخارجياً، أما الداخلي فبين صابر ونفسه، إذ كانت تتجاذبه قوتان، مثل قوة الإرادة وقوة الإعراض، أو قوة الحق وقوة الباطل. قوة الحق تتمثل في حقه بالعيش بحرية وكرامة فوق تراب أرضه المغتصب، أما قوة الباطل فتتمثل في الاحتلال الذي حرمه أبسط حقوقه، حتى السير في الشارع من دون التعرض لأذاهم والاعتداء عليه بالضرب المبرح. كذلك حقه كخريج جامعي متفوق في الحصول على وظيفة كريمة تتناسب مع تخصصه. أما الصراع الخارجي فهو الصراع المركزي والمصيري الذي يتمثل باستمرار احتلال فلسطين، كامل فلسطين. وجليّ أن الروائي دبور سلط الضوء على الصراع الخارجي أكثر من الداخلي كي يزيد من انفعال القارئ، فالصراع هو النقطة الأشدّ تأثيراً في نفس القارئ، وهو اللحظة التي تبلغ بالقارئ أعلى درجات الانفعال مع استشهاد «دلال» زوجة «صابر» الحامل، بسبب مزاجية جنود الاحتلال. بذلك استطاع الكاتب أن يشد القارئ لمواصلة القراءة عبر إيصاله إلى أعلى مراحل الانسجام، ويزداد الانفعال في مرحلة احتدام الصراع ورؤية زوجته في ثلاجة الموتى مع جنينها الذي خرج للحياة ميتاً بسبب الغاز المسيل للدموع الذي أطلقه الجنود عمداً.

الحبكة أو تنسيق الصراعات مع الحوادث رغم تشابكها بصورة متسلسلة نحو الغاية التي أرادها الكاتب، فيستوعبها القارئ ويربطها بسلاسة في ذهنه، مستخدماً أسلوب الانحدار المنساب الذي حقق بلا شك الانسجام والتركيز لدى القارئ. فالصراعات الكثيرة التي وردت في الرواية مرتبة ومهندسة ومنسقة، سواء تلك المتعلقة بـ«صابر» أو بالعجوز، ما أنجح الرواية ولم يتسبّب للقارئ بالازعاج الذي يتسبّب به الانحدار الانكساري الذي يهبط بالقارئ من موقف إلى موقف وعلى نحو فجائي.

فكرة الرواية التي هي أساس العمل الروائي والدافع والمحرك لرغبة الروائي، أكثر من رائعة. الفكرة الرئيسية من رواية «صابر» تسليط الضوء على معاناة الشعب الفلسطيني عامة والمخيم الفلسطيني بخاصة. ورغم أنها الفكرة الرئيسية للرواية إلا أنّ ثمة أفكاراً أخرى ثانوية تخدم الفكرة الرئيسية، فلكل صراع موجود في الرواية فكرته المرتبطة بالفكرة الرئيسية، وضمّن الكاتب عدة أهداف لإيصال مجموعة من الرسائل إلى القرّاء، بصورة غير متكررة كما ورد في عدة فصول من الرواية. أقتبس منها ما ورد في الفصل الأول حول الأخبار الخاصة بالقضية الفلسطينية والتي بقيت ثابتة ثبات الصمت العربي المخجل: « وأية أخبار؟ أخبار هرمة مللت سماعها، ضجرت من عناوينها المتكررة وتفاصيلها الممقتة. دائماً نفس الأخبار، أخبار القرن الماضي تعيد نفسها من جديد، تغيرت التكنولوجيا في بث الأخبار، تغيّر المذيعون، إلا أن الخبر بقي على ما هو عليه، لا يتغير. عناوين مفجعة تتكرر باستمرار، كلها تدور حول مسرحية هزلية طالت مُشاهدتها، بطولة أرض قيل إنها بلا شعب! أرض اغتصبت منذ عشرات السنين ولا زالت حتى اللحظة».

حول الشعارات البراقة التي طرحها العرب لتحرير فلسطين يقول: «عفواً، أخطأت! حررّها بعضهم بالكلام، وطئوا ترابها بالأحلام، صلّوا في أولى القبلتين وكلاب الصيد نيام، جوّعوا السمك ليطعموه لحم الاحتلال، مات السمك من الجوع، ومتنا نحن من ثرثرتهم وشعاراتهم البراقة، شعارات شوّهوا بها جمال وجوهنا وطهر قلوبنا، جعلونا أكلة لحوم البشر، أكلة العظام وأسناناً ضعيفة، لطيفة، هشة لا تقوى على طحن حبات الزبيب».

حول تمسك الزعامات العربية بمقاعد القرار يكتب: «يا ويحهم! أسماؤهم تتكرر ليل نهار، رجال أبديون لا يتغيرون، ألصقوا مؤخراتهم المترهلة بمقاعد القرار، وقالوا لماشيتهم في وضح النهار: نحن منزلون، عدّوا لنا بعشرات السنين. أصوات متخمة مللنا سماعها، شعارات براقة أصمت آذاننا، سياسات موحدة تطبخ أفكارها في مطبخ معروف، معروف جداً، وعلى الشعوب المخدرة أن تأكل مما يقدم لها من وجبات مُهينة، مُذلة، مُجبرة لا مُخيّرة، فيبقى الخبر محتفظاً بشكله ومضمونه».

إلى الكثير من الرسائل الغاضبة والجريئة التي تعبر عن واقع القضية الفلسطينية والغضب الفلسطيني. وتتميز رواية «صابر» بالشمولية إذ تغطّي بأسلوب شائق أهم ما مرت به القضية الفلسطينية منذ النكبة حتى توقيع اتفاقية أوسلو. ولا تترك شأناً يخص القضية الفلسطينية إلا تذكره، مثل: حرب حزيران، وانضمام القدس الشرقية إلى القدس الغربية، وانسحاب اليهود من سيناء وقطاع غزة بعد فشل العدوان الثلاثي... إلخ.

النهاية محكمة ومفتوحة ومكتملة الفكرة، إلا أن القارئ يبقى متشوقاً إلى ما سيحدث لبطلها «صابر» الذي زج في مصحة الأمراض العقلية. يريد الروائي دبور أن يقدم إلى القارئ الجزء الثاني إذ يقول بطل روايته «صابر» في الصفحة الأخيرة: «هذه قصتي يا أبي، تفلق الحجر وتعبّر عن جنون، وأنا لست مجنوناً وإنّما أمكث في هذا المستنقع النفساني لأترقّى إلى درجة مجنون، وعندما أتعلم فنون الجنون، سأعود وأسرد لك تاريخنا الجديد. سأحتفظ بصورتك لأحدثها عن فلسطين الجديدة. الآن شقشق النهار، واستيقظ سعيد وجاء موعد نومي. سأنام طويلاً، ربما أشهراً أو سنوات، وحين يذوب الثلج ويظهر ما كان مخفياً، سأعود... حتماً سأعود لأروي لك الجديد».

فكرة هذه الرواية لم تأت من الفراغ، فكثيراً ما ينثر الروائي أبعاد شخصيته على إنتاجه الأدبي، وقد تكون هذه الرواية حدثاً وقع في حياة الراوي وأثر فيه، وليس بالضرورة أن يكون حدث له شخصياً، إنما حدث في حياته فشارك في بناء فكرته. المحيط يؤثر في النفس، ومحيط الرواية هو مخيم الجلزون الذي يضم الذين هجروا من اللد والرملة وحيفا ويافا وبيت نبالا والسافرية وعنابة...وسواها، والروائي عاش في المخيم ونشأ فيه وتعرض للاعتقال عدة مرات، وسمع قصص المهجرين، ورأى ما رأى من الآلام التي دفعته إلى بناء روايته «صابر»، لتخرج من قلبه إلى قلب القارئ. ومما لا شك فيه أن الروائي سليم دبور تمكن من نسج الصراعات والحوادث لمتن روايته لامتلاكه الفكرة الكاملة والمهارة العالية – منذ شبابه– والتي مكنته من بناء هذه الرواية بهذا الإبداع.

انتهينا من قراءة الرواية، لكن حوادثها ستظل تسكننا ما حيينا. ولا يسعنا إلاّ أن نهنّئ الروائي سليم دبور على هذا الجهد الأدبي الرائع، ونقدّم إليه جزيل الشكر.